

١٣٢٧

بيروت — غرة ربيع الاول سنة ١٣٢٧ = الموافق ٢٢ آذار سنة ١٩٠٩

سعادة الحياة

٢

سعادة المرء في نفسه

اختلفت مذاهب الناس في تفسير هذه السعادة باختلاف مُيولهم ومشاربهم فلا تكاد تجد اتفاقاً في المعنى المراد منها شأن الناس في تفسير كل معقول — ذلك لان العقل لا حدّ له فهو حرٌّ لا يقبل التقييد ولا الخضوع لاي سلطة كانت ، واما بعض العقول التي نراها خاضعة متقيدة بسلاسل الاوهام او الاستبداد فهي عقول فاسدة طرأ عليها من الاحوال الخارجية ما جعلها اسيرة مستكينة لكل طارئٍ ، يدلك على ذلك انه متى رفع عنها ذلك الضغط وُجليت بجلاة الحقائق وهتك سيف البرهان الصحيح تلك الغشاوة التي تجللها فتمنعها عن مشاهدة الحق — رجعت الى اصلها وتجلت لها الحقيقة فلم تتبع سواها ،

— قلنا ان العقل حرٌّ يأبى ان يكون اسيراً ، ولذلك اختلفت العقول في تفسير المعاني والمعقولات ، اما الامور الحسية فلا تكاد تجد في تفسيرها اختلافاً

كثيراً كما في الامور المعقولة لان ما يقع تحت الحس يدرك بلا تعمُّل ولا مشقة شديدة، فهو اسير او عبد رق لا يتمكن من مخالفة سيده او الذي اسره، ولا يستطيع ان يفرّ او يأبق ، فان ابق فمن السهل ان يقبض عليهِ مولاه ، و كذلك شأن الاشياء المحسوسة فان تعاصت عن الادراك زمناً فلا بد ان تطيع وتكون رهن الحواس · وليس الشأن كذلك في الامور المعقولة ، لانها تكون من قبيل الامور الغيبية التي لا تقع تحت الحواس ، فهي كثيراً ما تعتاص حتى على المفكرين واصحاب العقول الراجحة والاحلام العظيمة ، فيختار كل منهم سبيلاً يسلكها ظاناً انها الضالة المنشودة التي توصله الى ما اجهد عقله واتعب فكره لاجلهِ ، وتراه يناضل اهل المذهب الآخر ويناقش اربابه بكل ما يستطيع وما يملكه من القوى العقلية التي اودعها الخالق سبحانهُ فيه

فكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذا كا

واختلاف الناس في الامور المعنوية لا يقتصر على امر دون آخر ، فانك لا تجد امرًا معقولاً الا وتجد بآزائهِ من الآراء والمذاهب ما يدع المرء حائراً لا يلوي على شيء ، غير ان العاقل البصير يدرس جميع ما يراه من الآراء درساً صحيحاً ثم يختار ما يظهر له انه الحق ، كلٌّ على حسب استعداده واجتهاده وان خالف في ذلك كثيراً من الناس

— على ذلك درج العلماء وفي هذه السبيل مشى الفلاسفة المتقدمون منهم والمتأخرون ، كل له رأي وفكر فهم لا يكادون يتفقون، غير ان كلاً منهم اختط لنفسهِ خطة مشى عليها وحسب نفسه سعيداً باتباعها

ولما كانت السعادة من الامور المعنوية المعقولة اختلف الناس فيها اختلافهم في غيرها من الامور التي لا دخل للحس فيها ·

يحسب البعض ان سعادة المرء في نفسهِ تكون بالتخلي عن هذا العالم الفاني

والتعلق بالعالم الباقي مع احتقار كل ما في هذا الوجود من اللذات ، وما انطوى عليه من المظاهر ، فمتى فعل الانسان ذلك كان سعيداً في نفسه لا يشعر بما ينزل به من المصائب ، ولا بما يلمّ بجسمه من المتاعب ، ولا تستميله الحسناء ، ولا تطغيه الصهباء ، ولا تستفزّه الاوتار ، ولا تغريد الاطيار ، او حفيف الاشجار ، كما لا تحزنه النائبات ، ولا تشجيه النادبات ولا الصارخات ، فسواء لديه الحياة والممات ، فنعيم هذا الحياة وبؤسها هما لديه سواء ، اذ يستوي عنده الفناء والبقاء — وعلى ذلك اكثر الفلاسفة وكثير من رجال الدين والصوفية الحقيقيين ، فهم يرغبون عن هذا العالم المملوء بالمصائب والزخارف الى ذلك العالم الباقي الذي لا الم فيه ولا شقاء بل كله سعادة وهناء

وهناك قسم آخر يقابل هذه الطائفة يزعم ان سعادة المرء في حياته تناقض هذا المبدأ مناقضة تامة ، ويقولون : ان ما زعمه هذا القسم من السعادة هو خطأ صُراح ، وجهل بَواح ، ولو دروا ما درينا وعلموا ما علمنا من الحياة وسعادتها لعدلوا عن هذا الزعم الفاسد ورموا به جانباً ، وتزعم هذه الطائفة من الناس ان السعادة هي ان يتمتع الانسان بما تحت هذا الفلك الدوار من المطعم والمشرب والتنقل من ملهى الى آخر والتلذذ بكل مرأى جميل ووجه صبيح ، والتنعم بالملابس الفاخرة والمركبات الجميلة والجياد المطهمة ، وتقطيع الاوقات في جمع الليرات ، وتضيع الساعات ، بين الغانيات ، والانس بسحر احاديثهن ، وسفك دم الحياة عندهن . . . . الى غير ذلك مما يسمى عند هذه الطائفة بالمدنية الجديدة

وهناك قسم وسط بين الطائفتين اخذ ما رآه حسناً عند كل طائفة منهما واحتفظ به وقال : ان ذلك هو الحياة الحق ، وهو السعادة التامة للمرء في هذه الدنيا وقبل ان نبين آراء هذه الطائفة الوسط يجب علينا ان ننصب العقل الصحيح محكما بين القومين الاولين لنرى ايهما اقرب الى الحق ، ثم نبين رأي القوم الآخرين

— من تفكر ملياً في مذاهب اهل التجرد عن هذا العالم والاحتفاظ بالرغبة عنه يجد انهم انصفوا في كثير من الامور التي جنحوا اليها فان التجرد عن هذه اللذات الوهمية وعدم اعتبارها مبدأ شريف ، غير ان الافراط في ذلك امرٌ غير محمود ، فان الله سبحانهُ لم يخلق الانسان في هذه الدنيا الا لحكمة سامية ، ولم يجعل له هذه الملذات الا لحكمة كذلك ، ولم يأمره بالاعتصام بالاعمال الصالحة التي تؤهله للعالم الباقي الا لحكمة اسمى وارقى ، فان اخذ المرء بطرف واهمل الطرف الآخر فقد اساء التصرف فيما خلقه الله لاجله وما خلقه الله له

ان الله لم يخلق الطيبات عبثاً ، والطيبات معنى عام شامل يندمج فيه كل ما ترتاح اليه النفوس والاجساد ، سواءٌ كان من الطيبات المعقولة او من الطيبات المحسوسة ، فتمسك المرء بقسم الطيبات المعقولة و رغبته عن القسم الآخر المحسوس خروجٌ عن سنة الله التي سنها لعباده ، حتى انه سبحانه حث الناس على الطيبات الجسمية فقال : «قل من حرَّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة » فالانسان انما اوجده الله في هذا الوجود لينال نصيبه من الدنيا ونصيبه من الآخرة ، وهذا النصيب يكون باتباع اوامره والانزجار بزواجره التي فهمها العقل وايدتها الشرائع السماوية

اما الذين خالفوا مبدأ اهل التجرد والمعقول وكانوا ماديين دينويين لا يهمهم من الحياة الا الاكل والشرب والضِراب والتنقل من روضة حسن الى اخرى وجمع المال باي وسيلة كانت زاعمين ان هذه هي الحياة وانها السعادة لا غير ، وانهم انما خلقوا لذلك — فقد ضلوا ضلالاً مبيناً وحادوا عن سواء السبيل ، ولو تفكروا في عاقبة امرهم لظهر لهم الامر وادركوا خطأَ فكرهم وضلال رأْيهم

— انا لا اذهب بهم الى المدى البعيد الذي يعتقد كثير منهم انه خلط واوهام ، وانما آخذ بهم الى المدى القريب الذي قد شاهده واحسَّ به اكثرهم — كل منهم يعلم

ان الافراط في الشهوات واعطاء النفس هواها تميل لكل ما تشاء وتختار تكون عاقبته الامراض والخسارة المادة والجسدية ، وقد حققوا بانفسهم ان كثرة الاوباء والامراض التي اعترت المجتمع انما كانت ناشئة عن الافراط بالملذات ، ومسبّبة عن الانهماك في الشهوات ، والانغماس في حمأة الهوى . بل ان ماتراه كل يوم ونسمع بـه من العسر المالي والافلاس والقضاء على النفوس البريئة بل وقضاء المرء على نفسهِ ، انما هو مسبب من الخروج عن سنة الله والرغبه عن اتباع الحق الى الميل نحو الهوى والشهوات

—هذا ما لكلٍّ من الطائفتين وما عليهما ، ويجدر بنا الآن ان نتكلم عن الطائفة الثالثة التي اختارت ان تكون طائفة وسطاً

— هذه الطائفة اعطت للروح حقها من النظر في الاكوان والاعتبار باحوال الامم الغابرة والحاضرة وما المّ بها من الطواريء المسببة عن الهوى والافراط في الشهوات ، فكبحت جماح النفس وردعتها ان تميل كل الميل الى ما تريده وتطلبه وحددت لها ملذة خاصة وهوى خاصاً لا تتعداهما وربطتها بانظمة وقوانين ان خرقت واحدة منها عاقبتها عقاب التأديب حتى لا تعود الى ذلك مرة اخرى

— قد اباحت للجسم ان ياخذ حظه من الملذات ولكن بشرط ان لا يتجاوزها الى ما يضرُّ بهِ ، بحيث يكون دائما نشيطاً في مأمن العلل والامراض التي تنهكه وتجعله عرضة لكل طاريء من الادواء . اباحت له الطيبات من المأكل والمشرب من غير اسراف ولا تبذير ، ولا تضييق ولا تقتير ، كما قال تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا »

— اباحت له ان يستعمل اعضاءه فيما خُلقت لاجله ، ولكن عند الحاجة ولامر هو اسمى مما يظنهُ اهل الشهوات ، — اباحت له ان يلبس ويتنعم ، ولكن بشرط ان لا يصل بهِ ذلك الى درجة الخنوثة ، ويخرجه عن دائرة الرجولة ان كان رجلاً وعن دائرة الادب ان كانت انثى ، — اباحت له الراحة والتنقل في ارض الله الواسعة والمتنزهات الجميلة ، ولكن بشرط ان لا يعتاد ذلك فيتمكن منه فيوجد فيهِ الكسل وبغض

العمل والميل الى الراحة وحب الدعة والاهمال ، ومتى تمكن من نفسهِ هـذا الامر كانت حياته كلها شقاء وعناء

هذه آراء الطائفة الثالثة وهي آراء حميدة ، وافكار سديدة ، فقد اخذت من كل شيء احسنه ، اخذت من الاولى تطهير النفس وحملها على معالي الامور والنظر الى السعادة الحقيقية ، واخذت من الثانية النظر الى مايطلبه هذا الجسد من التغذية والملاذ لكنها هذبتها تهذيباً جعلها صالحة معقولة ، فلم تهمل لذة العقل ولا لذة الجسد ، لانها رأت ان لكل منهما حقاً يطالب بهِ ويهيم في ان يتقاضاه ، فسلكت الطريق الوسط ، لان حب التناهي والغلو غلط

غير انا لو دققنا في كلا مذهبي الطائفتين الاولين واراد مريد ان ينحوا منحى احداهما لاغير نقول له ان انتهاج منهج الاولى هو خير وابقى واسلم في الآخرة والاولى ، هذا ان لم نقدر علَى ان نحمله بالبرهان على سلوك اوسط المذاهب وهو ان يعطي للعقل والروح حقهما وللجسد حقه كذلك

وخلاصة القول ان سعادة المرء في نفسهِ هي ان يكون مقتصداً فيما يتقاضاه منه العقل والجسد ، وان يرجع في كل امر معقول او محسوس الى سنن الله في الاكوان ، وما اتى بهِ من الشرائع بواسطة انبيائهِ المكرمين فلا يطلق للروح السراح فتعرض عن الدنيا البتة ، ولا يرخي للجسد العنان فينهمك في الملاذ التي تعود عليهِ بالخسران في دنياه ، والشقاء في عقباه ، فان من سار في منهج وسط امن العثار ، في هذه الدار وتلك الدار «والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم»

التربية اساس النجاح

تكلمنا في الفصول السابقة عن التربية من حيث هي ثم عن تربية الاخلاق والشعور وقسمناها الى ثلاثة ادوار ذكرنا الدور الاول منها وهو دور التربية المنزلية اي تربية الناشيء بين اسرته واهله وهاك الدور الثاني منها :

التربية المدرسية

هناك دور ثان وتربية ثانية وهو دور التلمذة والتربية المدرسية ، وهو دور يجب الاهتمام به كسابقه ، فانهُ نتيجة ما عُلِمه من ابويه ، ومـا اختبره من اخلاقهما واخلاق اسرته ، فان كان من حسن حظه انهُ وجد في مدرسة مستوفاة الشروط من حسن التربية والتهذيب فتلك سعادة فوق سعادة ، وان وجد في مدرسة فسدت اخلاق طلاَّبها والقائمين باعبائها فهناك الطامة الكبرى ، والبلية العظمى ، اذ هناك يتصرّف الطلبة باخلاق بعضهم والمعلمون باخلاق تلاميذهم

ولما كانت المدرسة منزلاً ثانياً للناشيء وجب ان تكون كمنزله الاصلي معهداً للاخلاق الكريمة والسجايا الفاضلة ، والا كانت ضربة قاضية على التلميذ ، بل شراً عليهِ من الافعى والوحش الضاري — لهذا وجب على الاب او الوليّ ان يختار لولده او للقيّم عليهِ من المدارس اسماها تربية وارقاها تهذيباً ، وذلك هو اوّل ما يجب أن يهتم بهِ حين يريد ادخاله في المدارس . واما امر التعليم فهو شيء ثانوي بالاضافة الى التربية

المدارس كثيرة فيجب علينا ان نسعى لاصلاحها ونبذل الجهد لايجاد روح الفضيلة والتهذيب العالي في كل حجر من احجارها وكل خشبة من اخشابها ، وبذلك نضمن مستقبل ابنائنا

— كيف نصلح المدارس ؟

— نصلحها باصلاح القائمين باعبائها وذلك بان نحمل رؤساءها علَى ان يختاروا

لها الأكفاء من المعلمين والمربين وان لاينتخبوا لها الا من هو ثقة معروف بآدابه واخلاقه ، لان التلاميذ امانة بين يديه — وذلك بان لا يكون المربي احمق انانياً وسخ الذيل ، بل يكون طاهر السيرة والسريرة وقوراً محباً للنفع ، وان يكون من اصحاب الدين والوجدان ، ولست اقصد بذلك ان يكون المربي شيخاً او كاهناً ، كلا ، وانما اعني بهِ ان يكون متبعاً للحق محبا للخير والسلام ذا وجدان صحيح واخلاق فاضلة وعواطف شريفة ، يسير بتلاميذه نحو ما يعود عليهم بالسلامة والنجاح . فان فعلنا غير ذلك فعلى مستقبل النابتة السلام

وسائل التربية في دوري الاسرة والمدرسة

تختلف وسائل التربية واسباب التهذيب باختلاف مشارب المربين ، فمنهم من يرى انها لاتكون الا بالقسوة والشدة والضرب وغير ذلك من الوسائل التي كانت محظورة في ايام الاستبداد ، فأحرِ بها ان تكون كذلك في ايام الحرية والعدل

— التهذيب على تلك الصورة هو من الاعمال الوحشية وهو بقية من بقايا الهمجية ، لانها تُفقد الناشيء ذلك الخُلق الكريم وهي الشجاعة التي هي مِلاك كل فضيلة ، ولست اعني بالشجاعة ان يكون الانسان وحشياً يستلُّ مديته او مسدسه عند اقلّ طاريء ، كلا . وانما اريد بالشجاعة تلك الروح التي تحفز المرء للدفاع عن وطنهِ بقلمه او ماله بل بسلاحه وروحه ان طرأ على البلاد طاريءٌ اجنبي يريد بها شرًّا (لاقدر الله ذلك) فالتربية على تلك الحالة الوحشية تجرد الولد عن صفةٍ هي خير الصفات ، وخلّةٍ هي خير الخلال ، الا وهي الشجاعة

— ومنهم من يرى ان التربية بشتم النشء وسبهم واهانتهم وتخويفهم وغير ذلك مما يربي في نفوسهم الذل والهوان والصغار . فالتربية على هذه الصفة تُفقد الناشيء كل شعور واحساس ، وتنزع عنه كل صفة من صفات الخير والكمال ، وتجعله عرضة لكل مؤثر وآلة صماء بيد كل مدير ، فلا يتحرك لامر ، ولا يتأثر من هوان ، فالموت

والحياة لديه سيان :

من يهنْ يسهل الهوان عليهِ ما لجرح بميتٍ إيلام

التربية الصحيحة التي جاء بها الشرع واقرّ عليها العقل والاختبار وعلماء التربية والتهذيب تكون بتعويد النشئ على الفضائل ، وارضاعهم المحامد ، وتغذيتهم بما ينير الاذهان ، ويوسع نطاق العقول مع لبن التغذية ودروس العلم ، بلا تخوّف ولا اهانة ولا ضرب ، بل بالترغيب والتنشيط وتمثيل الفضائل بصورها الكاملة ومستقبلها الحسن وتمثيل الرذائل والاخلاق السافلة والكسل بصورها القبيحة ومستقبلها السيء

وهناك امر مهم في التربية وهو ان لا يتكلم احد بحضرة الاطفال والناشئين بما ينافي التربية القويمة من الفاظ الفحش والبذاء ، وكلمات التخويف والتهويل كالبعبع والجن والعفاريت ، وغير ذلك مما يحدث في نفوس النابتة اثراً سيئاً لا يمحوه كرور الاعوام ولا مرور الازمان ، لان ما ينطبع في الناشيء لا يفنى الا بفناء جسمه ، ولا ادري ان كان يصاحب روحه بعد موتهِ ايضاً

— اما ما يفعله بعض من لا خلاق لهم من بث جراثيم الفساد في اولادهم ، وذلك بان يتكلموا امامهم بكلمات السفاهة وعبارات الوقاحة فهو مما لا يجدر بالعاقل السكوت عنه ان رأى مثل ذلك ، لانه من باب المنكر الذي تجب ازالته باية وسيلة من الوسائل

التربية الثالثة

التربية العملية

متى تمّ للناشيء هذان الدوران دور التربية المنزلية ودور التربية المدرسية ينتهي الى دور ثالث هو اشد الادوار واجدرها بالاعتناء ، الا وهو دور الجهاد في معترك الحياة ، دور الجد والعمل ، دور السعي بلا ملل ، وهو نتيجة الدورين السابقين فان كانا حسنين فهو حسن والضد بالضد · غير انه يلزم التنبه لامر عظيم وهو انه

لا يكفي ان تكون التربيتان الأوليان ساميتين فقط ، بل يجب ان يكون دور الجهاد منزهاً ايضاً ومقدساً ، والاّ ضاع التعب الماضي سدى ، لان هذا الدور الثالث دور اجتناء ثمرة الجهاد والجد والتربيتين اللتين تقدمتاه ، فان لم نُحسن اقتطاف هذه الثمرات تذبل شجرة الحياة

— كيف تكون التربية في هذا الدور دور الجهاد والعمل ؟ وكيف تُجنى نتائجها ؟؟

— تكون التربية في هذا الدور كسابقيهِ بالمحافظة على الآداب الصحيحة ، والاخلاق الفاضلة ، والسعي وراء تنمية القوى العقلية والادبية بالاختبار والمشاهدة والمطالعة وغير ذلك من وسائل ترقية النفس واذكاء نار الهمة — وهناك امرٌ مهم جداً وهو ان يُبتعد الشاب عن اقوام فسدت اخلاقهم وخبثت ضمائرهم ، ليس لهم همٌّ الا الفساد وتدنيس شرفهم واعراضهم بقاذورات المواخير والحانات والميسر « القمار » — واني لأَعلم طائفة ممن تربوا تربية حسنة في دور الاسرة « العائلة » والمدرسة ثم خرجوا منهما الى دور العمل والجهاد فاحاط بهم قوم فسدوا اخلاقاً وانحطوا آداباً فافسدوا عليهم اخلاقهم وشرفهم وغمسوهم في حمأة الشرور والمنكرات ، فخسروا اموالهم وعقولهم واجسامهم وثقة امتهم بهم ، فلا حول ولا قوة الاّ بالله

يجب ان نلتفت الى هذا الدور التفات متيقظ حاذق حذر ، والتربية في هذا الدور هي للحكام اكثر منها للآباء ، فيجب على القوة الحاكمة ان تبحث عن الشرور واصحابها ، وتنقّب عن مواضع قتل العقل والشرف واهلاك الاجسام واتلاف الاموال فتقفلها ، وان لم تفعل ذلك فيضيع مستقبل الشبان ، ويرجعون بخفي حنين بعد عناء التربيتين

ايتها القوة الحاكمة لا عذر لك في اهمال الشبان وعدم النظر الى تحسين احوالهم بمنعهم من كل ما يضرّ بدينهم ودنياهم واجسامهم وعقولهم ، فاحرصي على تخليصهم مما هم فيهِ من الفساد والفجور ، ولا تتوهمي ان القانون يبيح امثال هذه الشرور

والموبقات ، كلا . ان القانون اباح الحرية الشخصية بشرط ان لا يتعدى ضررها الى الغير . وافعال الشبان متعدٍّ ضررها الى غيرهم . ولا يظنن ظانٌّ ان الحكومة لا تقدر ان تمنع الشخص من عمل يضرُّ بنفسه لا غير ، بل هي مفوَّضة في منعه من كل ما يضر به وبغيره ، الا ترى انها لو رأت احداً يريد ان يقتل نفسه فهل تدعه يفعل ما يشاء او تمنعه من ذلك ؟ — لا شك انها تمنعه ، فكذلك لو رأته يعاطي القمار والشرور فهي تمنعه منها ، فان لم يكن المنع حباً بمن يعاطي هذه الامور فهو للحرص على ان لا يراه غيره فيعمل مثل عمله ، اذ لو تركوه وشأنه وعمل غيره بعمله يصير الضرر عاماً لا خاصاً

وصفوة القول

ان التربية الصحيحة للاخلاق والشعور هي اساس الفضائل ونبراس التقدم ، وسلم الترقي ، وروح النجاح . وان ترقي المجتمع والامم انما يكون بحسب الهمم ومقدار العزائم ، ولا تكون العزائم القوية والهمم العالية الا بتصحيح المبادئ ، وتقويم الاخلاق ، وذلك يكون بزرع بذور الملكات الصحيحة في عقول النابتة ، وتعويدهم الفضائل منذ نشأتهم حتى يكونوا رجال المستقبل ، مع ملاحظتهم في دور الجهاد والعمل الى ان يؤمن جانبهم

ويعجبني في هذا المقام قول الفيلسوف الطويراني :

« كل جيل من البشر هو عنوان ما قبله ومقدمة ما بعده ، وشبان كل عصر كبار آتيهِ وصغار ما فيه ، فكيفما كانت مقدمات الاعمال في امة كانت نتيجة الآمال فيها »

هذا ما اردنا الكلام فيه من التهذيب وتربية الاخلاق والشعور . وهناك تربية اخرى غير هذه وهي التربية الجسمية وهي مهمة ايضاً لان العقل الصحيح في الجسم الصحيح ، وسنتكلم عليها ان شاء الله تعالى

كلام في الانتقاد

وهي خطبة لصديقنا الشيخ احمد عمر المحمصاني الازهري كان قد القاها منذ سنة في جمعية غرس الفضائل بمصر ، وقد ارسلها الينا لتنشر في « النبراس » حتى تكون تتمة لهذا الموضوع الجليل الذي كتبنا فيه مقالة مطولة في العدد الاول من هذه المجلة · قال :

الانتقاد افتعال من النقد وهو في اللغة تمييز الجيد من الرديء ، وهذا المعنى موافق لما في الاصطلاح لأن المنتقد انما يريد من إجالة فكره فيما ينتقده اظهار الصواب من الخطأ وتمييز الحق من الباطل ، والانتقاد بهذا المعنى خيرٌ كله ونافع مفيد ، وهو من العوامل الكبرى في تقدم الافراد والامم ، فما من امة بلغت من الرفعة والارتقاء مكانا علياً الا وكان للانتقاد مدخل عظيم في ارتقاء علومها ومعارفها وصناعاتها وكل ما فيه تقدمها على غيرها · وما خمدت شعلة الانتقاد بين قوم الا وقد خفي بينهم الحق وضاع الانصاف ، وفشا فيهم الجور والاعتساف ، حتى يثوبوا الى اسباب رفعتهم وعزّتهم او يقضي الله فيهم بحكمه « سنةَ الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »

وما من احد عرف ما للانتقاد من الحث على اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل والجهر بالحق والاعتصام بالصبر فأخذ به وعمل عليه ، الا وفاز في ميدان هذه الحياة بالقدح المعلى وكان من الناجحين · وما من شخص اهمل نفسه ولم يبال بانتقاد غيره واتخذ آلهه هواه الا وكان من الخاسرين جزاءً وفاقا

ولا يخفى ما للانتقاد من الاهمية العظمى والتأثير الكبير فكأنّ المنتقد بيده قسطاس يزن فيه ما يرد عليه ، فان كان حقاً قبله ورضي به وان كان باطلاً طرحه ورمى به من حالق · وقد قال فيه شيخنا العلامة الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده رحمه الله :

« ان الانتقاد من جملة الغرائز التي اودعها الله في نفوس البشر لتكميلهم وكل واحد يجد من نفسه هذه الغريزة فانه عندما يرى منكراً او قبيحاً عَلَى حسب فهمه لا يمكن

ان يمنع نفسه من انتقاده »

وهذا القول لا مرية فيهِ وكلنا نجده في انفسنا ومما قاله في هذا الموضوع :

«انهُ قد يوجد كثير من الانتقاد موجّهاً الى الكاملين في اعمالهم مع انهم كاملون، ومثل هذا الانتقاد هو عبارة عن الجيوش التي توضع في زمن السلم علَى الحدود لتمنع الاعداء من الهجوم عليهــا ، فالكامل جعل الله له منتقدين لكيلا يغفل عن كماله او يسقط عن ترقيهِ فيه »

وهذا القول بديع جداً فيهِ يتضح لنا ان الانتقاد من العوامل الكبرى في ترقيـة الانسان مهما كان شأنه ومقامه وبهِ يزداد الكامل كمالاً و بهِ يرتقي المتدرج حتى يبلغ ما اعدّ الله له من الارتقاء

وما الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين وصف الله بهما الامة الاسلاميـة الا من نوع الانتقاد الذي نحن بصدده ، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة منها قوله عز وجل : « كنتم خير أُمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» ومنها : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأُولئك هم المفلحون » وقد سجل الله اللعنة على الذين تركوا ذلك بقوله : « لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » — وجاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليهِ وسلم « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر او ليسلّطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » وعنهُ صلى الله عليهِ وسلم : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر» على ان الاحاديث والآثار في هذا المعنى كثيرة وقــد أُفردت بالتأليف فلا نطيل بذكرها ويكفي من القلادة ما احاط بالجيــد

وما مجالس الشورى في الحكومات ومجالس النواب والمحاماة والمجالس الحسبية

الامن نتائج الانتقاد وتأصّله في البلاد ، وعلى نسبة ارتقائه واعتداله بين الامم والشعوب يكون ارتقاؤها والعكس بالعكس

وما الجرائد الصادقة والمجلات النافعة الامن آثار تكوّن الانتقاد في النفوس الحية فتكون شاهدة على العامل المحسن بما هو اهله ، وعلى المهمل الكسول بما يستحقه . بل الجرائد والمجلات اذا كان الحق غايتها والاعتدال رائدها والانصاف مقصدها تكون من مظاهر الانتقاد النافع عاملة على رفع رايته وتايید كلمته

وبعد فالانتقاد على قسمين عظيمين اولهما انتقاد الانسان لنفسهِ وهذا امر مهم جداً فان انتقاد الانسان لنفسهِ من جملة اعتنائهِ بها والاهتمام بارتقائها ، واذا عرف الانسان قيمة نفسهِ عمل على رفعتها وتكميلها فكان من الفائزين واذا جهلها تدلى الى احط درجات الحيوان ، فان هذا الانسان خلقٌ عجيب قد فتح له من ابواب الكمال مالا نهاية له اذا عمل للوصول اليها ، واذا تدنّى وتدنس فلا يعرف منتهى ما ينحط اليه وقد قلت من قصيدة :

اذا عرف الانسان قيمة نفسهِ تسامى الى العليا وطاب له السهد
يروح ويغدو في اجتهاد ورفعة وعن ذاك لا تلهيه دعد ولا هند
بذا يجمل الانسان في كل وجهة بذا تحسن الذكرى ويرتفع المجد

وقد ارشدنا الله الى انتقاد انفسنا بقوله : « بل الانسان على نفسهِ بصيرة » وبقوله عز وجل : « قد افلح من زكاَّها وقد خاب من دسّاها »

ومن فوائد انتقاد النفس ابعاد الغرور عنها فطالما تمكن الغرور من النفس فطوّح بها في مهاوي الهلاك والخسران . وفي انتقاد النفس اشعارها بالحاجة الى الكمال وتطلب المزيد منه . ومن نظر في سير اسلافنا الكرام وعلى الاخص في سيرة الخلفاء الراشدين يجد شواهد كثيرة لهذا المعنى ، منها : ان جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يمدحون سيدنا ابا بكر الصديق رضي الله عنه وهو حاضر بينهم سامع لقولهم ، فلما انتهى

كلامهم اجابهم بقوله : اللهم اجعلني خيراً مما يقولون واغفرلي مالا يعلمون »

ولقد كان الواحد منهم لايغفل انتقاد نفسه ولو كان على فراش الموت فقدحضر جماعة عند سيدنا ابي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو في مرضه الذي مات فيه فأثنوا عليه خيراً ، وقال بعضهم انك قد شهدت المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهنيئاً لك ، فاجابه بقوله : مهلاً يا ابن اخي فانك لاتدري ما أحدثنا بعده »

كلّ هذا حتى لايطمئنّ الانسان الى ما قدّم من عمل ويتوانى فيما هو فيه ، وحتى لايداخله الغرور فيهوي في مكان سحيق

وفي كلام الحكماء والادباء من انتقاد النفس شيء كثير وناهيك بكتاب زجر النفس للحكيم هرمس اليوناني ، فقد جرى في اسلوبه على التجريد المعروف عند الشعراء ، وجعله خطاباً للنفس من اوله الى آخره ، وقد تخلل ذاك شرح عيوبها وآفاتها وطرق تهذيبها وتكميلها · فهذه لمعة من فوائد انتقاد النفس ،فيها عبرة وبلاغ لاولي الالباب

اما القسم الثاني وهو انتقاد الغير للانسان فهو باب عظيم من ابواب تقويم النفوس وايقافها عند الحد الذي يبلغها الى الكمال الانساني الذي اعدّه الله لها ، فان الانسان يصعبُ عليه أن يرى عيوب نفسه الا قليلا ممن خصهم الله بانتقاد انفسهم ، فلا بدّ ان يرى وجهه فمرآته عبارة عن أخيه الآخر ولذا كان أولى الناس بانتقاد بعضهم بعضاً هم الاصدقاء ، لما يطلعون من شؤون بعضهم عَلَى مالا يطلع عليه غيرهم وقد جاء في الحديث: « المؤمن مرآة اخيه » وجاء في الحديث الآخر : « المرء كثير بأخيه »ومعنى الكثرة انه يجد منه معضداً اومنتقدا ومؤيدا وفي حديث آخر: « انصر اخاك ظالما اومظلوما» ومعنى نصرته ظالما ارشاده الى سبيل الحق والانصاف، وكل هذا من آثار الانتقاد

ولا يستنكف الانسان من ان يشير لاخيه بانتقاده فقد كان سلفنا رحمهم الله يصرحون بهذا ، ومازال المنصفون يشيرون لمن حولهم بانتقادهم حتى لا يتطرق اليهم الاعجاب بالنفس والغرور ، فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وناهيك به

يقول لسيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما : انظر هل تجد فيَّ شيئاً من علامات النفاق فان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم كان يخبرك باوصاف المنافقين ، فأجابهُ حذيفة : اني لا أجد فيك شيئاً منها ولا ازكي بعدك احدا

وان العاقل ليستفيد من كل منتقد سواءٌ كان صديقاً او عدوًّا ما دام قصده الوصول الى الكمال ، ولذا مدح بعض الافاضل اعداءه بقوله :

عِداي لهم فضل عليَّ ومنّةٌ فلاأذهب الرحمن عني الاعاديا
همُ نقّبوا عن زلتي فاجتنبتها وهم أيقظوني فاكتسبت المعاليا

وبالاجمال فالانتقاد بقسميهِ مفيد جداً ، وهو من اشدّ العوامل تأثيراً في تقدم الافراد والامم متى كان مستعملاً على وجهه الصحيح من اظهار الحق وتبيين الصواب

اما اذا قصد الانسان بانتقاده تصغير الوجوه والتبكيت والمماراة ونصر الباطل واتباع الهوى واضاعة الوقت فينقلب انتقاده ذماً وعمله وبالاً عليهِ ، شأن كل شيء يستعمله الانسان على غير ما قصد لاجله ، ولا يرضى بهذه المنزلة عاقل فانها

منزلة ما خلتها يرضى بها لنفسهِ ذوأدب ولا حِجا

بقي عليَّ ان أُشير الى آداب الانتقاد التي ينبغي ان يجعلها المنتقد نُصب عينيه ، وجماعها : ان يلاحظ أنهُ إنما يريد بانتقاده ان يؤثر في نفس المنتقد بحيث يقبل كلامه ويتأثر بهِ فاذا رأى ان يلين له بالقول ويضرب له الامثال والشواهد وان يخاطبهُ بالتكريم والثناء عليهِ فليفعل حسبما يقتضيهِ الحال ، وفي قوله تعالى آمراً لسيدنا موسى وهرون حينما ارسلهما الى فرعون : « فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر او يخشى » بلاغ لأُولي النهى

فعلى الانسان ان يسعى لما فيه نفعه ويعمل صالحاً واذا قال او انتقد فليكن سديد الرأي محكم الفكر حتى يكون مؤثرا ناصحا ، وليقبل من غيره ما يلاحظه عليه متى كان محقاً فليس لاهل العلم حلية بعد العلم اجمل من الانصاف والاتصاف به . جعلنا الله واياكم من الفائزين في الدارين ووفقنا لصالح الاعمال آمين

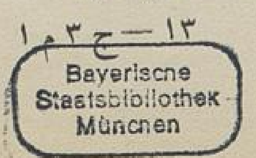
الانانية وحب الذات (١)

خلق الله الانسان واعطاه من الادراك ما يستعين بهِ على مكافحة اهوال هذه الحياة ، ومصادمة المصاعب التي تحول بينهُ وبين جرّ ما ينفعه ودرء ما يضره ، وهداه النجدين ، واوضح له الطريقين ، وسنّ له من النظامات ما لو اتبعهُ لكان سعيداً في الحياتين ، ارسل له الرسل ، فابان له على السنتها السبل ، وعرض عليهِ الامانة التي ابت ان تحملها السموات والارض ، اباءً طبيعياً لعدم الاستعداد لذلك ، لانه لم يودع فيها ما يجعلها اهلاً لتلك التكاليف التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، وحملها الانسان وتلقاها بما خص بهِ من جوهر العقل ، وسداد الرأي وسلامة الفطرة ، «انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان» فخان الله في امانته ، واضاع ما اخذه عليه من العهود والمواثيق ، «انه كان ظلوماً جهولا» طغى وبغى وترك النهج السوى ، طمعاً في ارضاء الهوى ، والنفس الامارة بالسوء ، فسُدّت ابواب السعادة الحقيقية في وجههِ ، وسوف يندم على مافعل ولات ساعة مندم

ما السبب الذي دعاه الى ذلك يا تُرى ؟ وما العلة التي قعدتْ بهِ عن الطيران الى سماء الفضائل ، الى الرسوب في حضيض الرذائل ، وحادتْ بهِ عن سلوك الصراط المستقيم الى المرتع الوخيم ؟ — لو دققنا الفكر وامعنا النظر ، لرأينا أن السبب لذلك ، والعلة الكبرى لاُقتحامهِ هذه المهالك ، هو حبّ الذات على غير وجههِ ، والاستئثار بالمنفعة دون غيره ، والانانية التي تصحبهُ من مهده الى قبره ، وعن ذلك تنشأُ سائر الرذائل الممقوتة ، والاخلاق المذمومة

حب الذات يطلق على معنيين : احدهما مذموم والآخر ممدوح مقبول معقول ، اما الاول : فهو ان يميل الى الاستبداد بالامر والامتناع بالمنفعة دون غيره ، ويبذلَ ما

(١) خلاصة خطاب كان قد القاه منشئ «النبراس» منذ ثلاث سنوات في منتدى المدرسة العثمانية في بيروت ايام كان استاذ اللغة العربية فيها



في وسعهِ وطاقتهِ لسدّ ابواب الخير عن سواه ، وتضحية المئات من منافع الخلق في سبيل خير جزئي يعود له ، او نفعٍ قليل يرجع اليه ، فحبُّ الذات بهذا المعنى رذيلة وحشية، لا تصدر الاعمّن فَقَد الشعور الانسانيّ والمرحمة القلبية ولبس من الهجمية ثوباً طويلا الاذيال واسعَ الاردان ، وكيف لا يكون كذلك ؟ وهو القائل :

انما دُنيايَ نفسي فاذا ذهبتْ نفسي فلا عاش احدْ
ليتَ أنَّ الشمس بعدي غربت ثم لم تطلُعُ على اهل البلد

ولا ابالغ اذا قلت : ان اكثر الناس قد نهجت هذا الخلق السيء ، وخاضت في تيار ذلك الامر الذي كاد يقضي علينا او قضى ، فنزع ما في قلوبنا من الحب والشعور، فاستبدلنا الذي هو ادنى بالذي هو خير ، — ترى احدنا ان لاح له بارق ولو خُلّباً ، او بصيصٌ من نور نفع وهمي ،سعى لذلك سعياً حثيثاً وإن اضرّ بمجموع الامة التي هو عائش في وسطها ، ومتمتع في بحبوحة خيرها

يقول اذا ما كنت امرح في المنى فما الناس عندي غير حصبة حاصب

ارشده فكره السافل ، ورأيهُ العاطل ، الى ان الاستئثار بالمنفعة خير له وابقى ، فجنى على نفسهُ وعلى غيره ، لان ذلك داءٌ مُعدٍ ما سرى في امة من الأُمم الا وكان اقوى سبب لسقوطها ، وجعلها في أُخريات الناس في هذا المعترك الحيوي

اختبر حالة الناس اليومَ ونقّب عن افعالهم واعمالهم ، ترَ انهم يغتنمون الفرص، ويطلون الوسائل بمغناطيس الحيل ، وكهرباء المداهنة ،لجذب المنافع اليهم ودفعها ان تنيخ بباب غيرهم ، — بل هناك داهية اعظم ونكباء اشد ، وهو ان كثيراً منا ، لغاية نفسيّةٍ خبيثة كمنت في فوءاده كمون النار في صلد الزناد ، يسعى لافساد ذات البين ، وايقاع ذات البين ، والتفريق بين الاخوين، وإلقاء الناس في التهلكة، وجر المصائب والويلات عليهم ، وماله بذلك من فائدة ، ولا يناله من عائدة ، بل لانهُ حنق عليه مرة في عمره ، او اصابهُ منه اذىً ولولا يعبأ بهِ. ولا ابرئ كثيراً منا من هيئة الوصمة

فان البعض اذا حصل بينهُ وبين احد نفورٌ ما تراه يزوّر القول ويختلق الأكاذيب، لاثبات ذنب على من بينهُ وبينه حزازة او نفور تشفياً منهُ وانتقاماً ،ولكن الحق لا يخفى ولو سُتر باسجاف الباطل الكثيفة، وستائر الوهميات الغليظة ، فلا يلبث ان يزول هذا الغطاء، وينهتك ذاك الرين،فتبدو الحقيقة باجلى مظاهرها،وابهى حُليّها وحُللها،

نعم هذه حالة الناس اليوم : كلٌّ يجرُّ النار الى قرصه ، ويطلب الماء الى غرسه ولو علموا ما في الأثرة بذلك من الضرر المبين ، لاقلعوا عنهُ تائبين ، ومع ذلك فهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، ويقولون ما لا يفعلون

واما حب الذات بالمعنى الثاني : فهو ان يسعى المرء لما يعود عليه بالنفع بشرط ان لا يُلحق بغيره ضرراً ، فهو بهذا المعنى ممدوح مطلوب ، بل فضيلة عليها قوام أمر المدنية وعمارة هذا الكون ، اذ من المحال ان يعمل احد عملاً لا ترجع له منهُ فائدة دنيوية او اخروية ، ولو ان هذه الفائدة امرٌ وهمي ، يخرج من الافواه فيحمل على جناحي الهواء ، فيطير في الفضاء ، كالمدح والثناء ، - اتظن ان اصحاب هذه المعامل العظيمة ، والاختراعات الجسيمة ، لولا حبهم لذاتهم ، هل اتوا بغرائب هذه المدنية التي نشاهدها بابصارنا ، ونحكم باستحسانها اجمالاً ببصيرتنا ؟ ، وهل كنا قد رأينا البواخر تمخر عباب البحار ، تقلُّ ما عليها من الاثقال والسُّفار ، الى بلد لم يكونوا بالغيه الا بشق الانفس ؟، وهل كنا قد ابصرنا القطار،يقطع السهوب والقفار ؟ ، قد اتخذ سبيله في البر سهلاً وسرباً، فأرانا امراً عجباً ، فان اردتهُ وقد أُطلق له العنان فلن تستطيع له طلبا ، تارة يصوّب وطوراً يُصعّد ، واخرى يبدي زفيراً وشهيقاً ، وآونةً يبكي لهفة مَشوقا ، وآناً تستولي عليه الدعة والخمول ، فيخلد الى السكون وقطع العويل ، يسير الى حيث يُراد به لا كما هو يريد ، وهذا هو شأن المشتاق العميد

وما هو الا كالمشوق حدا به　　غرام اثارته جنوب الحبائب
وهذي بخارات الجوى ودخانهُ　　ونيرانهُ في الصدر تحت الترائب

اراني قد جذبت بعامل التصور ، وسرحت في عالم الخيال ، فاستجديكم ايها القراء عذراً ·

نعم ولولا حب الذات لما قام لدين قائمة ، بل ولا عُبد الله في ارضهِ ، ولا سمعت للكرام اسما ، ولا رأيت للشجاعة والمروءة رسما ، — فلو ان حاتماً وعنترة والسموأل لم يكونوا ممن يحسبون انفسهم ، بل ممن هم كَلِفون بمحبتها ، لما البسوا ارواحهم ثوباً من المدح لا يبلى ولو بلي الدهر ، وتاجاً تتمنى الثريا ان تكون في سمائهِ ، لولا حب الذات وبقاء الذكر المخلد المسطر على صفحات الكون، لما دعت الاول نفسهُ الى ان يجود بها في بعض الاحايين ، ولما خاض الثاني المعامع ، ورغب في عناق الاسمر الخطار ، ومصاحبة الابيض البتار ، غيرَ مبال بالكوارث ، ولا مهتم بالحوادث ، يستضيء بسيفهِ ان اظلم الليل ، ويستصبح بسنان رمحهِ ان اختلطت حنادس الخطوب بظلمات الليل · ولولا حب الذات وطيب المدح وعظمة الفخر ، لما جاد ثالثهم بولده وفلذة كبده ، وآثر حبَّ الشهرة والتقريظ على روح وُلْده ، وما كان لو سلَّم تلك الدروع ، لولا ما قدمناه من حبهِ لذاتهِ ، ليقال انهُ امين صرف دون حفظ ما أُتمن روح نجله ·

وهناك قوم ليسوا في العير ولا النفير ، فسروا حب الذات على غير الوجه الذي فسره به اصحاب الرأي الاول والثاني ، فادَّى بهم حبهم لذاتهم ان تعالوا على ابناء جنسهم واحتقروا من سواهم ، فظنوا ان الله لم يخلق غيرهم ، وان ما عداهم خيالات واوهام ، او حيوانات عجم لا يستحقون الاكرام ، فهم كالانعام ، او عبيد لهم والسلام · وحسبوا انهم بذلك محبون لذاتهم مكرمون لها ، ولو علموا أَنهم بفعلهم هذا اغضبوا الخالق والمخلوق ، بل لو دروا أن هذا ليس من حب الذات في شيء ، بل هو من بغضها وكراهية الخير لها ، لأقلعوا عن ذلك ، ورجعوا عن العبور في هذه المسالك التي توصل الى المهالك ،

— من كان هذا دأبهُ مع ابناء جنسه ، وتلك فعلته بمن هو منهم ، فقد فتح لهم طريقاً ليسلكوا في هجوه والقدح فيهِ ، و يتبعوه الاحتقار حيث مال ، والنفور منهُ في الحل والترحال ، وهو غافل عن افعالهم يظن لفرط جهلهِ وانانيتهِ وعجبه بنفسه ان كلامهم كلهُ مدح ، وفعلهم جلّهُ تعظيم وتبجيل ·

يظن هذا الجاهل العبام ، ومن هو على شاكلتهِ من الطغام ، ان هذا من باب تكريم النفس ، فمن اتصف بهِ فهو ذو نفس ابية ، وربما ينشد : ومن لا يكرّم نفسهُ لا يكرّم ، ويفسره بمعنى الترفع عن الناس والتكبر عليهم واحتقارهم : اما ليخافوا بأسهُ وشدته ، او ليخضعوا لجاهه وثروته ، لا يوقّر كبيراً لسنه ، ولا عالماً لفضله ، ولا يرحم صغيراً لضعف مُنَّته

حكي ان مطرف بن عبد الله ابن الشخّير نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلّة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال : ياابا عبد الله ماهذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب : اماتعرفني ؟ فقال : بل اعرفك ·· اولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة · فاخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمهُ شعراً فقال :

عجبتُ من معجب بصورته وكان بالامس نطفةً مذره

وفي غدٍ بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذره

وهو على تيهه ونخوتهِ مابين ثوبيْه يحمل العذره

وكان المهلب افضل من ان يخدع نفسهُ بهذا الجواب الغير الصواب ، ولكنها زلة زلات الاسترسال ، وخطيئة من خطايا الادلال ·

وشواهد ذلك كثيرة بيننا اليوم ، فأدِرْ طرفك في هذا العالم ، واختص بهذا الحكم بني آدم ، ترَ صدق النتيجات ، من هذه المقدمات ، — يفعلون كل ذلك اعتماداً على انهُ من باب تكريم النفس والاباء ، الم يدرِ هؤلاء المعجبون بانفسهم ان معنى تكريم النفس هو ان يحملها على معالي الامور ، و يجهدها على الصبر تحت اعباء المجد ، ويسدي

الجميل الى الناس ، ويُغضي عن زلاتهم مع القدرة على الانتقام ، وان يبذل جهده وطاقتهُ دون ايصال الخير لهم ، ودفع المضرة عنهم

هذا معني حب الذات وتكريم النفس ، فان فعل ذلك فقد استحق الاكرام منهم ، ورفعَ المنزلة بينهم ، وان تكون له الكلمة العليا والامر النافذ ، يقومون ان قام ، ويقعدون ان قعد :

ومن يجعلِ المعروف من دون عرضهِ　　يَفِرْه ومن لا يتقِ الشتم يُشتمِ
ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله　　على قومهِ يُستغنَ عنهُ ويُذمم
ومن يوفِ لا يذمم ومن يُهدَ قلبه　　الى مطمئنّ البر لا يتجمجم

وان فعل غير ذلك فقد اساء الى نفسهِ وبني جنسهِ ، ويكون قد اضرّ بنفسهُ من حيث لا يشعر ، وجنى عليها من حيث لا يدري ، فيكون « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً » هذا ان كان له غزل وقدم بين يدي سيئاته حسنات

— محب الذات بهذا المعني ايضاً سافل ساقط المروءة والدين ، ناقص العقل مفتون بالرذيلة ، بل هو عين الاعجاب الذي انكره الله والعقلاء ، وشُدّد الوعيد على من تردى بردائهِ كما جاء في الحديث القدسي : « الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني فيهما قصمته » وكما جاء في حديث آخر : « ثلاث مهلكات شحٌ مُطاع ، وهوًى مُتَّبع ، واعجاب المرء بنفسهِ » والآيات في ذلك كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى «ولا تمش في الارض مرحاً ، انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً » « ولا تُصعّر خدّك للناس ولا تمشِ في الارض مرَحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور . واُقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير» . — وما الاباء الذي يفسرونهُ الا عجب وكبر ، وجرٌّ لذيول الفخر الباطل والمجد الوهمي ، فيمثلون نقصية الاعجاب تحت ستائر الامتناع عن الضيم واسم الاباء المحمود ، — وما الاباء والامتناع عن الضيم : الا ان تلبس مطارف الفضيلة ، وتنزع ثوب الرذيلة ، وتتبع

الحق اينما كان ، وتذل النفس في طلب الكمال ، وتهينها تحت عبء المجد ، لتنال بذلك عزة الابد ، وفخار الامد · ولا اقصد بتذليل النفس واهانتها ان يكون الانسان خاضعاً تحت نير الأغيار ، يُصفع فلا يعتبر ، ويُرشق بسهام الكلام فلا يدّكر ، كلا وانما هو الخضوع للحقيقة ، وتحمُّلُ المشقات في سبيل المكرمات ، غير مبالٍ بما يعترضهُ من العقبات ، ولا عابيء بما يحول بينهُ وبين القصد من المخوفات ·

هذا هو حب الذات ، وهذه هي فضيلته ورذيلته ، فاعيذ قومي بالله ان يكونوا مع من فسروه على غير وجههِ ، ولم يدركوا حقيقة كنهه ·

أحبوا انفسكم واسعوا لمنفعة ذواتكم ، وترفعوا غن النقائص وقرين السوء ، لكن لا تدعوا لابليس بغض الغير والضرر بهم سبيلاً يجوزه ، ولا لوساوس النفس الامارة بالسوء طريقاً تعبره ، فتأمركم باحتقار سواكم ، والترفع عن ابناء جنسكم ، اللهم الا ان يكونوا ممن عُرفوا بنقص الدين والعقل ، وفساد الاعراق ، والميل لمنكرات الاخلاق ، ومع ذلك فلا ينبغي احتقارهم والازدراء بهم لانفسهم ، بل ان الترفع عن افعالهم ، والابتعاد عن شائن اعمالهم ، كافيان في احتقار ماهم فيهِ من فاسد احوالهم ، — واياكم ان تدعوا للعجب والكبرياء على عقولكم سلطانا ، فقد قال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه احد حُسّاد عقله ، واعيذكم بالله ان تكونوا من الحاسدين ، جدُّوا واجتهدوا وتقدموا — فقد كفانا ذلك الخمول الطويل ، والسبات الذي كاد يُدعى بالدائم او دُعي ، وحسبنا ذلك الانحطاط الذي جعلنا آخر الامم ، بعد ان كنا القابضين على نواصي العلم ، والجالسين على منصّات الفضل ، الينا يرجع في المشكلات ، وعلينا يعتمد في المهمات ، وبنا تُناط الصناعات ، وفينا تحلّ المكرمات ، — تركنا ذلك الهديَ الواضح ، والعقل الراجح ، وملنا عن تلك المناهج الى هذا الجهل الفاضح ، وسلكنا مفاوز مظلمة الارجاء ، وطُرقاً يضلُّ فيها الخرّيت ، ونبذنا العلوم والفنون والصناعات ، والاخلاق ومستحسن العادات ، تقليداً للأهواء ، وهوىً للتقليد ، وما

بهذا أُمرنا ، ولا لهذا خلقنا · وقد حل فينا من جراء ذلك

اعباءُ همٍّ من ثقال الاسى ... لو حُمِّلتها الشمُّ لم تَسطِعِ
ولو بدت للشمس في أُفقها ... ارزاؤُنا الدهماء لم تسطع
ولو رأَتها الطير في وكرها ... آمنةً عيَت ولم تسجع

فلنطرح عنا تلك الاخلاق والعادات ، ولنتمسك بما يوصلنا الى غاية الغايات ، ورفيع الدرجات ، والا فلا رقي ولا نجاح ،ولا صلح ولا اصلاح، فسلام على من يسعى لاحياء الوطن بابادة جراثيم الاخلاق الضارة ونشر العادات السليمة والعلم والتربية الصحيحة

خواطر عربية ومختارات افرنجية

(١) من اسوإِ المبادئ ان يكون الانسان بلا مبدأ (لابرو يير)

(٢) سئل عاقل ايٌّ افضل في نظرك ؟ القاتل ام المرائي ؟ فقال : لا يوجد تفاضل بين رذيلتين · لكنني امقت المرائي اكثر ، لانهُ اكثر ضرراً للانسانية من القاتل ، فان هذا يعرف فيتَّقى · واما المرائي فانهُ بإلباسهِ الشرَّ صورة الخير يهوي بكثيرين الى قاع الرذيلة وهم لا يشعرون

ايٌّ شيء يكون اقبح مرأى ... من صديق يصير ذا وجهين
من ورائي يجول مثل عدوي ... وهو ان يلقني يقبل عيني

(٣) سلام · لطف · صدق · عفة · حرية · عدل · إِخاء · مساواة · كلمات كثر قائلوها وقل عاملوها

فاكثر من تلقى يسرك قوله ... ولكن قليل من يسرك فعله
وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي ... فافسده هذا الزمان واهله

(٤) روح التعصب تحط اعظم الرجال الى ادنى منزلة (لابروبير)

(٥) العالم مملوء من اولئك الذين اذ يقابلون انفسهم بالآخرين يحكمون لذاتهم بالافضلية دائماً ويظهرون هذا الفكر بتصرفاتهم كل يوم (له)

(٦) ثلاثة لا تصدر الا من ثلاثة · الكبرياء من الجهل · والحسد من الضعف والكذب من الجبن

(٧) في النفس العظيمة كل شيء عظيم · واما النفس الدنيئة فكل شيء فيها دنيء حتى الصداقة نفسها (باسكال)

(٨) اذا لم يكن عندنا كبرياء لا نشكو من كبرياء الآخرين · والذي يجعل كبرياء الآخرين غير محتملة هو انها تجرح كبرياءنا (لارشيفوكول)

(٩) اولئك الذين يفتكرون بنا رديئاً بدون ان يعرفونا جيداً لا يسيئون الينا ، لانهم لا يحاربوننا وانما يحاربون الخيال القائم في مخيلتهم

(١٠) النفس العظيمة ارفع من ان يصل اليها الشتم والظلم والسخرية ، بل تجرح اذا لم تشفق عَلَى مرتكبي هذه الدنايا (لابروبير)

(١١) لا اريد سحق عدوي · ولكن لديه شيء اودُّ لو أنتزعه منه · ليست فضائله ما اعنيه ، ولا غناه ما اريده ، ولا حياته التي اتطلبها ، ولكن ارادته السيئة ، وهي لاغير ما احب انتزاعه منه (باسو)

(١٢) لا اهجن من ترفع العاجز ، وتدجيل البخيل ، وتكهن الكسلان · فان هذه الاطمار البالية لا تحجب عري المتسترين بها الا عن قصيري البصر

(١٣) الجبان يلجأ الى التعريض ، اما الحر فلا يخشى من التصريح

(١٤) خير لنا ان نستهدف للكنود · من ان نمتنع عن عمل الخير (لابروبير)

حمص ع

الالقاب والرتب

جاءتنا مجلة (المقتبس) وهي مفتتحة بمحاضرة مهمة عنوانها (الشام والحرية) وكان قد القاها احمدبك زكي احد علماء القاهرة في دار صاحب المقتبس بدمشق وفيها بحث عن الالقاب والرتب فاخترنا ان ننقله لقراء (النبراس) اليوم ليكون مقدمة لما سنكتبه في هذا الموضوع في الجزء الآتي قال :

كانت حكومة المسلمين في الصدر الاول وفي ايام السلف الصالح اشبه شيء بالحكومة الديموقراطيـــة ، اي حكومة الامة بالامة كما هو الحاصل الآن في دولتنا العثمانية ، فلم يكن فيها من القاب الشرف ولا رتب الفخار بل كان الناس كلهم سواء فلا ترى ولا تعرف الا فلان بن فلان ،ولا يكون التعظيم الا بالكنية وهي من المفاخر التي استأثر بها العرب دون سائر الامم الى هذا لزمان ، فكانوا يقولون ابو فلان فان لم يكن له ولد قيل ابو فلان باسم ابيهِ . هكذا كان الناس في ايام بني امية مهما بلغت درجاتهم وعلت مناصبهم كما هو الشان الآن في بلاد الاميركان التي هي بلاد الحرية الحقيقية باكمل معانيها ، فليس منهم الا مستر فلان حتى رئيس الجمهوريـــة فنازلاً من الوزراء الى كل ارباب الوظائف الى عامة الناس ، وكذلك الحال فـي بلاد سويسرة التي تتفجر منها ينابيع الحرية الصحيحة في اوربا فلا يمتاز فيها ولا في اميركا رجل باي لقب اللهم الا باللقب الذي يطابق رتبتهُ في العسكرية فقط . فاما اول من تلقب من الخلفاء فهو عبدالله ابو جعفر وقد غلب لقبهُ حتى انني لو اكتفيت بهذه الاشارة عنه لما عرف من هو الا الاقلون ، واما اذا ذكرت لكم اللقب الذي اشتهر به لعرفتموه لانهُ اصبح له علماً في التاريخ وهو المنصور ثاني الخلائف من بني العباس . ثم تغلغلت الدول الاسلامية في الالقاب فكثرت وتنوعت وتعددت حتى صرنا الى ما ترونهُ الآن ، فصار الجوهر تغشاه اعراض براقة خلابة ضغطت عليـهِ وطمست معالمهُ حتى كاد يضيع ان لم نقل ضاع ، فصرنا ولنا الالقاب نتهافت عليهـا ونتطلبها من سبيل الحرام اكثر مما نتطلبها من سبيل الحلال ، بل اصبحنا وعدم الالقاب هو اللقب ، فيا حبذا الرجل منا الذي يشابه الحرف عند النحاة فيكون عدم العلامة له هو العلامة

اما وقد تنبهنا من رقدتنا واخذنا باسباب الرجوع الى الحياة فقد اشار الى محو الرتب والغائها كاتب مجيد في جريدة « شوراى امت » التي تطبع بالتركية في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، فاستميحكم ان اقول كلمة في هذا الموضوع :

فقد جاء الوقت الذي نجاهر فيهِ بضمائرنا واميالنا ونقول الحق ونصدع به ، فقد كان هذا العاجز يقول لكثير من اصدقائه في مصر انني والله احب ان اتخلى عن اللقب الذي نلتهُ بجدي واجتهادي ، ولطالما جاهدت بالتأفف منه لا استنكافاً منه لانني اراه فوق قدري ، ولكن استنكافاً لكثيرين ممن حازوه او حازوا اعلى منه ، وهم انما شروه بفضل الدراهم او ببعض المساعي الممقوتة . كثيرون من اصدقائي وهم احياء يرزقون يشهدون لي بانني طالما تمنيت عَلَى الله ان يزول عني هذا اللقب لا بالتجريد فانهُ مشين ، ولكن بالتسليم فانهُ شريف بحيث ارجع الى اسمي : احمد افندي او احمد بن ابراهيم او ابو ابراهيم احمد زكي ، فاتكنى باسم والدي اذ قد جعلني الله في نعمة وافية من عدم الحصول على خلف لي . ولكن الآن يجب ان نشير في محو الالقاب بطريقة معقولة مقبولة فلا نلغيها مرة واحدة من الحاصلين عليها لانهم ربما لا يرضيهم ذلك وهم ان لم يعبّروا عن عدم رضاهم جهراً فربما يكون فيهم كثيرون لا يرضون بهِ سراً ، ونحن في عصر الحرية ينبغي ان نحترم ارادة كل انسان وان لا يفتات البعض على البعض ولو في الالقاب واحسن وسيلة هي ان لا نسلك في هذا الموضوع شططاً بل نسير فيهِ سيراً وسطاً ، وذلك في رأْيي هو تخيير اصحاب الالقاب في التنازل عنها ، فمن رضي فبها ونعمت ، ولا ريب ان الاكثرين يرضون التجرد من هذه الالقاب التي قد ترهقهم عسراً ، اما الذين يريدون حفظها فامرهم اليهم . ولكن الدولة تُقرر انها من الآن فصاعداً تلغي الرتب ، فلا القاب عندها منذ اليوم بحيث لا يأْتي زمن طويل حتى تنقرض الالقاب ويبقى الناس كلهم افندي او سيداً او خواجه او شيخاً او ابا فلان ، وتصبح الامة كلها سواء تحت هلال الدستور

لا يتميز بعضهم على بعض الا بالعمل النافع للمجموع ، فتكون الامة كلها راقيــة لان كل فرد يتطلب النبوغ ويسعى الى التفوّق بكدّه وجده وحسبنا ذلك فخاراً ٠

بهذه الوسيلة يزداد سواد اهل الفضل في هذه البلاد فيكون لاهل العلم والعمل دلال على ارباب الدولة كما كان لامثالهم في ايام عز الاسلام

التربية والامهات

جاءتنا مجلة « المقتبس » الغراء بعد ان تاقت الانفس اليها وهي طافحة بما تعوده قراؤها من المقالات والمباحث المفيدة وفيهاقصيدة الشاعر العربي المجيد بلبل بغداد معروف افندى الرصافي ، ونحن ننشرها اليوم رعاية لما وعدنا به قراء « النبراس » في العدد الماضي وقد شرحنا بعض مافيها من الالفاظ التي تخفى على العامة والتلاميذ حباً بزيادة فائدتها وها هي :

هي الاخلاق تنبت كالنبات ... اذا سقيت بماء المكرمات
تقوم اذا تعهّدها المربي ... على ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق ... كما اتسقت انابيب القناة[1]
وتُنعش من صميم المجد روحاً ... باز هار لها متضوّعات
ولم ار للخلائق من محلّ ... يهذّبها كحضن الامهات
فحضن الام مدرسة تسامت ... بتربيــة البنين او البنات
واخلاق الوليد تقاس حسناً ... باخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا ... كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنانٍ ... كمثل النبت ينبت في الفلاة

* * * *

فيا صدر الفتاة رحبت صدراً ... فانت مقرّ اسنى العاطفات
نراك اذا ضممت الطفل لوحاً ... يفوق جميع الواح الحيــاة

(١) القناة الرمح وكل عصا مستوية

اذا أُستند الوليد عليك لاحت — تصاوير الحنان مصوَّرات
لأَخلاق الصبيّ بك انعكاس — كما انعكس الخيال على المراة
وما ضرَّ بان قلبك غير درس — لتلقين الخصال الفاضلات
فأوَّل درس تهذيب السجايا — يكون عليك يا صدر الفتاة
فكيف نظنُّ بالابناء خيراً — اذا نشأوا بحضن الجاهلات
وهل يُرجى لاطفالٍ كمالٌ — اذا ارتضعوا ثُديَّ الناقصات
فما للامهات جهلنَ حتى — أتين بكل طياَّش الحصاة[1]
حنون على الرضيع بغير علم — فضاع حنوّ تلك المرضعات

* * * *

أَمَّ المؤمنين اليكِ نشكو — مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا امُّ منها — « نكاد نغصّ بالماء الفرات »
تخذنا بعدكِ العادات ديناً — فاشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهنَّ سبيل خسرٍ — وصدوهنّ عن سبل الحياة
بحيث لزمن قعر البيت حتى — نزلن به بمنزلة الأداة[2]
وعدّوهن اضعف من ذباب — بلا جنح واهون من شذاة[3]

(١) الطياش الذي لا يقصد وجهاً واحداً لخفة عقله. والحصاة : العقل والرأي يقال : فلان ذو حصاة : وقور ، وما له حصاة ولا أَصاة اي رزانة ، قال طرفة

وان لسان المرء ما لم تكن له — حصاة على عوراته لدليل

(٢) الاداة الآلة يريد بها ما يستعمل في البيوت كالآنية ، والشاعر يقرّع بذلك بعض من لا خلاق لهم ممن اضاعوا حقوق المرأة وسلبوها ما منحها الله من المقام السامي غير ناظرين الى ما ورد في حقها من الآيات والاحاديث القاضية بتكريمها وجعلها مساوية للرجل في كل شيء الا في السلطة التي منحها الله للرجل وجعله قوّاماً عليها بواسطتها . وقد عقدنا للكلام على المرأة في الاسلام باباً مطوّلاً في كتابنا « الاسلام روح المدنية » الذي رددنا به على اللورد كرومر فليرجع اليه من شاء (٣) الجنح : الذنب . الشذاة : كسرة العود

وقالوا شرعة الاسلام تقضي ... بتفضيل الذين على اللواتي
وقالوا ان معنى العلم شيء ... تضيق بهِ صدور الغانيات
وقالوا الجاهلات اعف نفساً ... عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا على الاسلام كذباً ... تزول الشم منهُ مزلزلات
أليس العلم في الاسلام فرضاً ... على ابنائـهِ وعلى البنات
وكانت أمنا في العلم بحراً ... تحل لسائليها المشكلات
وعلمها النبي اجل علم ... فكانت من اجل العالمات
لذا قال ارجعوا ابداً اليها ... بثلثي دينكم ذي البينات
وكان العلم تلقيناً فامسى ... يحصّل بانتياب المدرسات
وبالتقرير من كتب ضخام ... وبالقلم الممدّ من الدواة
ألم نرَ في الحسان الغيد قبلاً ... أوانس كاتبات شاعرات
وقد كانت نساء القوم قدماً ... يرحن الى الحروب مع الغزاة
يكن لهم على الاعداء عوناً ... ويضمدن الجروح الداميات
وكم منهن من أسرت وذاقت ... عذاب الهون في أسر العداة
فماذا اليوم ضر لو التفتنا ... الى اسلافنا بعض التفات
فهم ساروا بنهج هدى وسرنا ... بمنهاج التفرق والشتات
نرى جهل الفتاة لها عفافاً ... كأن الجهل حصن للفتاة
ونحتقر الحلائل لا لجرم ... فنؤذيهن انواع الاذاة (١)
ونلزمهن قعر البيت قهراً ... ونحسبهن فيهِ من الهنات (٢)
لئن وأدوا البنات فقد قبرنا ... جميع نسائنا قبل الممات

(١) الحلائل : الزوجات (٢) الهنُ : كناية عن كل اسم جنس ومعناه شيء ومؤنثه هناة وجمعها هنوات وهنات ، يريد بذلك اننا نحسب المرأة من جهلنا شيئاً من اشياء البيت

حجبناهنَّ عن طلب المعالي فعشن بجهلهنَّ مهتكات
ولو عدمت طباع القوم لؤماً لماغدت النساء محجّبات (١)
وتهذيب الرجال اجلُّ شرط لجعل نسائهم متهذبات
وماضرَّ العفيفة كشف وجه بدا بين الاعفاء الاباء
فدًى لخلائق الاعراب نفسي وان وُصفوا لدينا بالجفاة
فكم برزت بحيّهم الغواني حواسرَ غير ما متريبات
وكم خشف بمربعهم وظبي يمرُّ مع الجداية والمهاة (٢)
ولولا الجهل ثمَّ لقلت مرحى لمن ألفوا البداوة في الفلاة (٣)

جرائد جديدة

الحقيقة — جريدة يومية سياسية ادبية تصدر عن بيروت · صاحب امتيازها الشيخ احمد افندي عباس رئيس وصاحب المدرسة العثمانية الشهيرة ، ومديرها المسؤول حسن افندي الناطور ، وهي من الجرائد اليومية ذات مباحث ادبية وسياسية مفيدة · وبدل اشتراكها في بيروت اربعة ريالات وفي الخارج ليرة عثمانية فنرغب الى القوم في مطالعتها والاشتراك فيها

العرفان — مجلة علمية ادبية اخلاقية اجتماعية تصدر عن صيدا في كل شهر عربي لمنشئها الشيخ احمد عارف افندي الزين · وقد ورد الينا منها العدد الاول فألفيناه مشتملاً بعد المقدمة على عدة مقالات علمية وادبية وقصائد عصرية · وهي تصدر في ثمان واربعين صفحة بالقطع المتوسط · وبدل اشتراكها ريال مجيدي في صيدا وربع ليرة فرنساوية في خارجها فنرجو لها التوفيق

ابابيل — وافتنا هذه الجريدة الاسبوعية الادبية السياسية الانتقادية (ولكن بحق) لصاحبها الشيخ حسين افندي الحبال ، وهي طافحة بالمقالات والاخبار والفكاهات وفي اعدادها الاربعة الاول مقالات مهمة مدبجة بيراع السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الشهيرة والمصلح

(١) السبب في تحجب النساء فساد طباع الناس فلو تجردوا عن لؤم الطبيعة لأُبيح للمرأة كشف وجهها كما كانت في زمن النبي واصحابه (٢) الخشف والظبي : الغزال · الجداية والمهاة : الغزالة وفي الكلام مجاز لايخفى (٣) ثم :هناك · مرحى : كلمة تقال عند اصابة الشيء كما ان برحي تقال عند الخطأ فيه

الكبير ، و بدل اشتراكها خمسة وعشرون قرشاً في بيروت وخمسة وعشرون قرشاً في الولايات وسبعة فرنكات في سائر الجهات فنأمل لها الرواج

=لدينا كتب كثيرة ضاق المقام عن تقريظها في هذا العدد وسنذكرها في العدد الآتي ان شاء الله فمعذرة الى اصحابها

جمعية الاتحاد والترقى

وسقوط الوزارة الكاملية

تولى كامل باشا الصدارة العظمى بعد سعيد باشا الصغير وازمة الانقلاب في ابانها ، والحماس والمظاهرات والنصب والعزل بالغـة مبلغها ، فساس الدولة بحكمة وروية واخلاص ، وكان هو وجمعية الاتحاد والترقي يداً واحدة في الاصلاح والسعي ، ثم اتخذ لنفسهِ حزباً سياسياً او ان ذلك الحزب قد اتخذه آلة بيده لادارة الاعمال التي ينوبها ، الا وهو الحزب الذي سمى نفسه الحزب الحر ، والذي لم نكن لنسمع به حينما كانت جمعية الاتحاد والترقى تجاهـد باموالها وانفسها تحت عواصف الظلم ورعود الاستبداد — حينما كانت ترسل الوفود الى البلاد ، وتبعث البعوث حيث كان الجهل والجور مخيمين على العباد — كانت تفعل كل ذلك في سبيل تخليص البلاد مما اصابها وتطهيرها مما ألمَّ بها — في ذلك الوقت لم نجد لهذا الحزب الذي يدعي انه حرٌ عملاً ، ولم نسمع له صوتاً ، بل هو لم يقدر على البروز ولم يستطع ان يشكلهُ اربابه الا بعد ان اعلنت الجمعية بواسطة الجيش القانون الاساسي القاضي بحرية الاجتماعات وتشكيل الجمعيات

— عمل هذا الحزب الجديد علَى معاكسة جمعية الاتحاد والترقي واخذ يختلق عليها الاكاذيب ويبثُّ الدسائس لاسقاطها من اعين الناس ، وكامل باشا قد جارى هذا الحزب وضرب على النغم الذى يضرب عليه . كل ذلك والجمعية لم تكن جاهلة بما هو كائن غير انها كانت تتغافل عن ذلك لانها تعلم ان المركز الذى اخذته في قلوب الناس

لا يمكن ان يزلزل بمساعي بعض المفسدين ، ولم تكن تتصور ان الخرق سيتسع والخطب سيتفاقم وان بعضاً ممن اقسم بيمين الاخلاص للدستور والجمعية ينتقض عليها ويعمل على معاكستها شأن كل رجل غير ثابت على مبداء يعرف به — فلما رأت حرج الموقف الذى صارت فيه ، وعلمت انها ان لم تتدارك الامر وتسعَ جهد الطاقة لاعادة مركزها وأُبَّهتها ربما يفوز ذلك الحزب فيضيع مسعاها الذي قضت السنين الطوال وراءه حتى فازت بما كانت تريد ، وهي تعتقد ان وظيفتها لم تنتهِ ولا تنتهي الا بتوطيد القانون الاساسي تمام التوطيد حتى لا يبقى لاحزاب التقهقر امل بارجاع الحالة الاولى — لهذا رأت ان تبذل الجهد لاِحباط مسعى كل حزب يعمل على مناوأتها او يريد بالبلاد غير ما تريد من اتحاد العناصر و إحكام روابط الالفة والاخاء والمساواة ورفع منار العدل وراية الحرية على البلاد العثمانية كافة

— اخذ كامل باشا بالتقرب من ذلك الحزب والابتعاد عن الجمعية شيئاً فشيئاً الى ان حضر جلسة من جلسات مجلس الامة وخطب ذلك الخطاب الذي ثبَّت بهِ مركزه الحرج بعد ان كان يعتوره عامل الاسقاط والتثبيت (كما فصلنا ذلك في العدد الماضي) فلما رأى ان مركزه تمكن اخذ يصارح الجمعية بما كان يكنُّه صدره ، وصار يعمل الاعمال المنافية لروح الدستور والعدالة لانه لم يزل الدور الماضي البائد مؤثراً فيهِ ، فابتدأ يعزل من كان منتسباً للجمعية على غير ذنب جنوه ، ونصب مكانهم ممن كان منتسباً لحزبهِ ويعمل بارادتهِ ، فلما رأت الجمعية ذلك منه عملت على اسقاطه وسعت لذلك السعي الحثيث بواسطة ممثليها في مجلس النواب الى ان كان ما كان من استدعاء المجلس لكامل باشا الى الحضور واعتذاره وطلب تأجيل حضوره الى آخر ما فصلته الجرائد اليومية ، وكانت عاقبة الامر فوز الجمعية واسقاط كامل باشا باكثرية آراء المجلس ، وهذا نجاح باهر لهذه الجمعية الذي كانت سبب خلاص الامة مما كانت فيهِ من الظلم والاضطهاد ، وذلك يدل دلالة صريحة على ان الجمعية لم تزل قوية لا

يستطيع ان يعاندها احد يعمل علَى غير ما يوافق روح الدستور والعدل . ثم صدر الامر بتعيين حسين حلمي باشا لمنصب الصدارة ، وقد حضر الى المجلس وشرح خطته التى سيجري فيها فلاقت استحساناً وتصفيقاً

كلمة عن جمعية الاتحاد والترقي

ان هذه الجمعية التي كان عملها ما تقدم وما علمهُ الخاص والعام من الاعمال المدهشة التي قامت بها حتى خلَّصت البلاد والعباد قد قام لها اضداد من انصار الاستبداد واحزاب التقهقر فاخذوا يُنشئون الجمعيات باسماء مختلفة تخالف غايتها واعمالها ، حتى ان البعض ممن اقسموا يمين الاخلاص لهذه الجمعية المقدسة اخذوا بواسطة الواشين من هذه الاحزاب يطعنون على الجمعية ويرمونها بما هي بريئة منه

ان كثيراً من اعضاء الجمعية اليوم كان من انصار الاستبداد قبل اعلان القانون الاساسي وقد اندسوا في جسمها بعد ذلك خوفاً من العزل والاسقاط ، ولكنهم لم يحسنوا اعمالهم بل ظلوا على ما تعودوه من الظلم والتكبر فظن من لا روية لهُ ولا نقد أنَّ مثل هؤلاء من اركان الجمعية ، فنفر منها بسبب ما رآه من اعمالهم المنافية للدستور ، وقد ادرك رجال الجمعية الذين هم احرار قبل الحرية ذلك فهم يهتمون لتطهيرها من الاعضاء المستبدين والمتقهقرين الذين يعداون ما ينافي مبدأ ها باسمها ويزعمون انهم من انصارها

الجمعية مقدسة ، ولا يضرها وجود بعض اعضاء فيها هم من انصار التقهقر لان هؤلاء لا بد من طردهم منها وابعادهم عنها حتى ترجع الى ما كانت عليه ، وستكون في بيروت ودمشق وحلب وغيرها من الولايات مطهرة راقية كما هي في سلانيك ومناستر واستانة ، فليعتزلها المتقهقرون او فليصلحوا انفسهم قبل ان يرفضوا منها . وليحافظ اعضاؤها على يمين الاخلاص لها والدفاع عن مبدائها الحر وليثبتوا على ذلك فان الثبات خير « وأن لو استقاموا علَى الطريقة لاسقيناهم ماءً غدقا »

حديث

هاشم بن يحيى
او
شقاء الشبان

بقالب رواية خيالية اخلاقيه تهذيبية ادبية تاليف منشئ « النبراس »

تابع لحديث الجلسة الأولى

الشيخ — أيْ بنيّ ليس القرب من الله بكثرة الصلاة والصيام ، واظهار الصلاح امام الانام ، فكم من مصلّ ليس له من صلاته الا التعب ، وكم من متهجد ليس له من تهجده الا السهر ، وكم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش وانما القرب من الله تعالى بتطهير الباطن والظاهر واداء الواجبات على حقها من حقوق الخالق والمخلوق ، وان يكون القصد من ذلك كله وجه الله تعالى ، لا الرياء والسمعة ، فان ذلك هو الشرك الخفي كما ورد في بعض الاحاديث · اما من يضيع الاوقات في العبادة مع اضاعة حقوق المخلوقات واذاهم واكل اموالهم والسعي في افساد ذات بينهم والوشاية بهم لالقائهم في التهلكات — فذلك عملُ مَن باء بسخط من الله وغضب الله عليه ولعنه واعدّ له جهنم وساءت مصيرا ، و إن من لم تنهه صلاته وعباداته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ولا عبادة · وسازيدك بياناً لهذا الموضوع في غير وقتنا هذا

هاشم بن يحيى — احمد الله الذي جعلني من المقبولين لديه ، وأسأله ان يوفقني لمرضاته والعمل بما يحب

قال راوي الحديث : قال هاشم بن يحيى : ثم قال لي الشيخ :

— أيْ بنيّ هات ما عندك

هاشم — اني في فكر دائم وهمّ متواصل لما اصاب الأُسرَ « العائلات » من

الانحلال ، وناب اكثر افرادها من فساد الاخلاق وسوء التربية ، حتى خرجوا عن القصد ، ومشوا في غير الجادة ، نخيّم الجهل فوق دُورهم ، واناخ الشؤم في عُقر بيوتهم ورحاب قصورهم ، فلا تكاد ترى أُسرة من جميع الطبقات — الا مَن رحم ربك وقليل ما هم — خالية من الشقاء بسبب الشقاق بين افرادها ، وعدم الترتيب المطلوب من نسائها ، وغير ذلك من الامور التي اتخذوها قاعدة الاعمال المنزلية واساس الحياة فيما بينهم ، فكنتُ كلما فكّرت في هذا الامر يعظم همي ، وينمو غمي ، فأريد من سيدي الشيخ ان يصف لي الدواء الناجع في هذا الداء المعضل ، فكم ليلة ادمت فيها الفكر على التأمل في حالة النشء ، وكم نهارٍ ادمنت فيهِ التفكر لاعرف سرّ تأخرهم ومصدر شقائهم ، فلم اهتدِ الى اكتناه سبب المفاسد التي احاطت بهم من ايمانهم وشمائلهم وخلفهم وامامهم ومن فوقهم واسفل منهم ، فلما عسر عليّ ذلك سألت عنه كثيراً من القوم ، فلم ارَ منهم ما يثلج الصدر او يبرد الغليل ، فكان منهم من قارب المحزّ ولم يجرِ من الصواب على عرق ، ومنهم من وصف حتى كاد يروي الغلة ويُطفئ الأُوار ، وكثير منهم وضعوا الهناء في غير مواضيع النُّقَب ، فصوّحت لذلك زهرة آمالي ، وذوت دوحة رجائي ، فلما اشفيت على هذا الحال حكمت بان لاسبب لذلك ، وحققت بان لا مخلص من هذا الشقاء ، ولا مناص من هذا العناء

الشيخ — : كيف ذلك يا بني وان الله قد ربط الاسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها ؟ فلا يحدث شيء في الكون الا وله سبب معلوم او يمكن علمه ، غير أن الناس ليست في ذلك سواء ، فمنهم من أُوتي علماً وافرا وعقلاً كاملاً فهو يدرك الاسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات ، ومنهم من قصّر عن تلك الرتبة فهو يعلم من الاشياء حسب ما اودعه الله فيهِ من العلم والعقل ، غير ان الله قد ارشده الى الاسترشاد بمن فوقه فهماً ودراية «وفوق كل ذي علم عليم» وليس من العقل يابنيّ ان يحكم الانسان على شيء بايجاب او سلب الا بعد ان يقتله علما ، وينحره فهما ، فان عجز عن ذلك

فليسعَ الى من سبقهُ سعياً ، وليأْخذ عنهم ما قصر فهمه عن ادراكه : « فاسأَلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وان كثيراً ممن يدَّعون الفهم ان عسر عليهم فهم شيء من العلوم او ادراك عبارة من كتاب حكموا بمقتضى رأْيهم الفاسد وعلمهم الكاسد على ارباب ذلك الفن او مؤلف ذلك الكتاب بقلة البضاعة في العلم ، ووسموا المؤلف بالجهل ، وان كانوا هم الاغبياء . فأُعيذك بالله يا بنيَّ ان تكون منهم ، فان ما حكمت عليهِ أنهُ لا سبب له — له اسباب وعلل ، غير انَّ منها ما هو ظاهر ، ومنها ما هو خفي ، وسأشرح لك ظاهرها وخفيها حتى تنجلي لك الحقائق كالشمس في رابعة النهار ، فتعلم أن لشقاء النشء وفساد الأُسر « العائلات » عللاً واسباباً انتجت ما نراه من التأخر والبؤس والانحلال ، وتحقق أَن ذلك ليس من باب الاتفاق «الصدفة» في شيء بل هناك عوامل مؤثرة ودواعٍ فعالة احدثت ذلك التغيير والانقلاب في حالة المجتمع الأُسري « العائلي » اذ العلة والمعلول متلازمان عقلاً وعادة ، فمتى وجد احدهما وجد الآخر بازائهِ البتة ، ومن أدَّعى غير ذلك فعليه البرهان ، ولا تظن ان هناك احداً له عقل يخالف في ذلك

هاشم بن يحيى — : نعم ان ما تقوله يا مولاي هو ظاهر في الاشياء الطبيعية ، فاننا لا نرى فيها شيئاً يحدث الاَّ وله سبب معلوم او خفي ، اللّهم الا ما كان من باب الخوارق للانبياء ، او كان مما يسمونه فلتات الطبيعة

الشيخ — : ايْ بنيَّ ان ذلك النظام الالهي نظام ربط الاسباب بالمسببات واضح جلي لا شك معه في الاحوال الطبيعية ، وليس كذلك من الامور الاجتماعية التي منها هيئـة الأُسرة ، وذلك لان تلك الاسباب مبنية على الحسّ والكشف ، والاسباب الاجتماعية مبنية على العقل والتأمل والنظر المعنوي ، لذلك لا يتناولها كل عقل ولا يدركها اي انسان ، لان المعارف البشرية وخصوصاً الاجتماعية منها مهما ترقَّت فهي لم تزل في دور الطفولية ، والطفل لايمكنه الاّ ادراك ما هو محسوس باحدى الحواس

الخمس ، نعم ربما يكون عقله الغريزي معيناً له على ادراك بعض الصور المعقولة اذا مُثّلت له حتى صارت كأنها محسوسه او بالغ الانسان في توضيحها وتقريبها من ادراكه — لذلك تراه اذا رأى صورة من صور المحسوسات أَنس بها وأَلِفها ، وان عُرضت عليه مسألة من المعقولات نفر منها كأنها وحش ضار ، ولكن لا ينبغي للمربي ان يهمله ان رآه نافراً ، بل يجب عليه ان يرغبهُ فيها ويقرّبها من ذهنه وفهمه بجميع الاسباب الممكنة

الطفل يستغرب كل ما لا يقع تحت الحواس ، غير أنهُ متى علم السبب زال عجبه : خذ مثلاً قطعة من الحديد واربط بها سلكا دقيقاً واجذبها من حيث لا يشعر فتراه يستغرب امر حركتها ، فان اعلمته انك جذبتها بالسلك بطل عجبه وزال استغرابه ، فان جذبتها بالمغناطيس مثلاً كان عجبهُ اشدّ واستغرابه اقوى ، ويصعب حينئذٍ ازالة عجبه — كل ذلك لانهُ قد رُكز في كل نفس حتى الاطفال أنّ حدوث امرٍ بلا سبب محال . نعم ربما يكون السبب في بعض الاوقات مجهولاً او غريباً فيظن من لا روية له ولا خبرة انعدام السبب وان الشيء قد حصل اتفاقاً بلا علة ، وهو كما علمتَ من الجهل وعدم التبصر

فكل ما يطرأ على الجسم الاجتماعي من الامراض والادواء له اسباب خاضعة لذلك الناموس العام والنظام المحكم ، الا وهو ربط الاسباب بالمسببات ، وان جهلها احد فالذنب ليس على الناموس بل عليه . والجهل بها كما تقدم ناتج من كونها اموراً عقلية لا تقع تحت الحواس والارادة ، فليس لنا سلطة عليها ، ومع هذا فربما يكون لهذا السبب الاجتماعي عدة اسباب تكون داعية للجهل بها ، فمن وهبه الله عقلاً كاملا ومعرفة بالامور وافرة هداه الى كثير من تلك الاسباب التي يعرف بها ما اصاب جسم المجتمع من الادواء والامراض التي كادت تُبيده ويسهل عليه وصف الدواء متى عرفت الادواء ، لان تشريح المرض ومعرفة على ما هو عليه نصف الدواء

هاشم بن يحيى — : حقاً تقول ، وقد علمتُ ان السعادة والشقاء وصعود الامم

وهبوطها ليس من الاتفاق «الصدفة» في شيء بل هناك اسباب وعلل دعت الى ذلك، فان كانت تلك الامة آخذة باسباب التقدم والتربية الحق والتمدن الصحيح وعدم الافراط والتفريط في كل شيء حازت قصب السبق في مضمار هذه الحياة ، والعكس بالعكس ، وحكم الأُسَر «العائلات» حكم الامم في صعودها وهبوطها ، لانها امة صغيرة ومملكة مختصرة

الشيخ — : اجلْ يا بنيّ ، وان اساس ذلك كله قولهُ تعالى : «ان الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم» فهذه الآية هي النظام المحكم والركن الركين والقانون الاساسي الحكيم ، فمتى غيّر القوم ما بأنفسهم غيَّرهم الله من حالٍ الى حال — اما من شقاء الى سعادة — ان كانوا في ضلال فعزموا علَى تغييره واخذوا باسباب الخير — واما من سعادة الى شقاء — ان عزموا على تبديلها ومدُّوا ايديهم لدواعي الشر — وفي حالة الدولة العثمانية قبل الانقلاب الاخير وبعده اعظم برهان على ذلك ، وسأزيدك بياناً لهذا الموضوع متى سنحت الفرص ان شاء الله

هاشم بن يحيى — : ندع هذا الموضوع لسنوح الفرص كما اشرت ، واشرح لي الآن اسباب شقاء النشء والأُسر ومتى عرفنا ذلك امكننا ان نسعى بنزعها واستبدال اسباب السعادة بها

الشيخ — :قد أُعطيتَ سؤلك ، فكن في راحة فكر وهنـاء بال ، فسأصف لك من الدواء ما يعجز عنه نطس الاطباء ، غير أن لي عشراتٍ من السنين لم اجتمع فيها بأحد ، لاني اعتزلتهم ومايفعلون ، لسوء ما كانوا يعملون ، وقد نسيت كثيراً من عاداتهم واخلاقهم واحوالهم ، فهل لك ان نطوف المنازل والبيوت فتطلعني على مخبآتها ومفاسدها ، حتى اصف لك الادوية لهذه الادواء ؟

هاشم بن يحيى — : انّى لنا ان نجوس خلال الديار وندخل البيوت ؟ وكيف نقدر على ذلك وانت تعلم ان دون ما تريد خرط القتاد ؟

الشيخ — : نعم انك لتقول حقاً ، ولكن يكفي من ذلك ان نطوف الاحياء ونرى الابناء ، ومن ذلك نستطلع الحقيقة ، لان الاولاد من الآباء بمنزلة الثمار من الاشجار ، ومتى طاب الثمر طابت الثمرة ، واني لأستدل من اخلاق الاولاد وعاداتهم على اخلاق آبائهم وامهاتهم ، فالولد يربى على ماوجد عليه ابويه من خير او شر

هاشم بن يحيى — اصبت كبد الحقيقة ، فهلم بنا لنسعى في امرنا بعد الاتكال على الله

الشيخ — : مهلاً يا بني ، واياك والعجلة فانها قد لا تأتي بخير ، وان من تأنى نال ما تمنى ، الم ترَ ان الله خلق السموات والارض في ستة ايام ، وهو قادر على ان يخلقهن ومثلهن باقل من لمح البصر «انما أمره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» وماذلك الا ليعلّم عباده التأني والرفق ، لان فيهما اتقان الاعمال ونيل الآمال ، فالتأني رأس مال العاقل ، والتؤدة خير واسطة لامل الآمل — مه حتى نفكر في الامر وندرسه درساً صحيحاً ونقلبه ظهراً لبطن ، فلا نكون كمن سعى الى الهيجاء بغير سلاح ، اوسلك طريقاً لم يعرف من حدها ولا رسمها ما يستعين به على انتهاجها

هاشم بن يحيى — : الامر اليك يامولاي ، فما تريد ان اصنع فاني رهين اشارتك ؟

— الرأي عندي ان نتفرق الآن على ان نجتمع غدا

— ذلك اليك ان رأيت ان فيه الصواب

قال راوي الحديث : قال هاشم بن يحيى : ثم فارقني الشيخ الى حيث لا اعلم بعد ان عين لي المجتمع ، وقد اوصاني ان لا اقص حديثي معه الا بعد تمامه

« للعدد الاتي »

شكر

يشكر صاحب « النبراس » للمشتركين وخصوصاً الذين اصحبوا بدل الاشتراك بالطلب وعلى الاخص الذين ارسلوا القيمة قبل صدور « النبراس » لمجرد الاعلان عن صدوره وكثير منهم ليس له علاقة او معرفة بمنشئه من ذي قبل . وكذلك يهدي خالص الشكر لاصحاب الجرائد اوالمجلات كافة الذين تفضلوا بتقريظهم المجلة وترحيبهم بها